فن المســـــرح

(تحية الأستاذ الفاضل زكي طليمات)

للأستاذ عبد الفتاح البارودي

توافينا الأنباء الفنية الخارجية يوماً بعد يوم بدلالات كثيرة على اهتمام الأمم الراقية في الأعوام الأخيرة بالمسرح اهتماما بوشك أن يعيد إليه اعتباراته الأدبية ومكانته الفنية الصحيحة مما حدا بكثير من النقاد إلى تسمية عصرنا الحـــاضر بمصر (بعث المسرح Rebirth of the Theatre) .

فنحن نجد مثلا أن بعض كبار الممثلين (وفي مقدمتهم شارلس لوتون) يقررون اعتزال السينما وقصر جهودهم على المسرح ! ونجد أيضا أن هيئة فنية لها قيمتها مثل « جمعية المسرحيات ذات الفصل الواحد » في لندن لا تكتفي بمضاعفة نشاط المسرح الخاص بها مضاعفة جبارة بل تقرر علاوة على ذلك طبع ونشر أضخم عدد ممكن من روائع المسرحيات ليتسنى لمن لا يحظى بمشاهدتها مثلا أن يحظى بقراءتها متى أراد . وفعلا صدرت — في فترة قصيرة — جملة مجموعات من بينها المجموعة المعروفة : « مسرحيات النساء »

ينطق ببراعة قائله الفنان ، وإني لأعجب كيف اندفع البارودي إلى تلميذه الناشيء هذا الاندفاع الغريب ، فقد نظم فيه من الفرائد كما لو كان خدين شبابه ورفيق صباه ، كأن يقول .

أنا أهواك فطرة ليس فيها ... من مساغ للنقض والإبرام
جمعتنا الآداب قبل التلاقي ... بنسيم الأرواح لا الأجسام
فبلغنا بالود مالم ينله ... بحنان القربى ذوو الأرحام
وإذا الحب لم يكن ذاد واع ... كان أرسى قواعدا من شمام

هذا وقد اتصلت المراسلات بين الشاعرين فترة غير قصيرة كان لها أثرها البين في عظمة الأمير فقد تلفت الدهر بعينيه إلى من يحظى بمساجلة البارودي العظيم ، وتطلع محبو الأدب في شتى بقاع العربية ، إلى الشاعر الجديد يحفظون قصائده ، ويتقنصون فرائده ، ويوازنون بين نثره ونظمه فيجدونه أهلا للحمد والاطراء وهذا بلا شك غنم كبير فاز به الأمير .

(له بقية)

محمد رجب البيومي

جمع واختيار الكاتبة (اليزابيث إفرارد Elizabeth Everard) ونجد كذلك أن مؤتمر الخبراء المسرحيين التابع لمنظمة التعاون الثقافي لهيئة الأمم المتحدة يقرر — فيما يقرر — بجلسته المنعقدة بباريس في يوليو الماضي : (اعتبار المسرح أداة ثقافية رفيعة ... وإنشاء معهد مسرحي عالمي .. وتأليف جمعية دولية من المسرحيين العمليين والنظريين للنهوض بالمسرح وكفالة أسباب التعاون بين رجاله في العالم والمحافظة عليه من طغيان السينما ... الخ) .

هـذا في الخارج ، أما في مصر والشرق بصفة عامة فأغلب الظن أن المسرح لا يزال — بالرغم من جهود القائمين على شؤونه — من أقل الفنون شأناً بلا سبب واضح سوى جهلنا بحقيقته من جهة وعدم التفاتنا إلى مكافحة هذا الجهل من جهة أخرى . ومرد ذلك إلى أننا — فيما يبدو — لم نؤمن بعد هذا الفن العريق من حيث كونه « فناً » له ذاته وله موضوعاته الخاصة به وله مقوماته وله فوائده الأدبية والمادية ... بل لعلنا لم ندرك بعد — أو لم نكد ندرك — ما له من قيم !!

لهذا سأبدأ بشرح موجز لأهم هذه القيم تاركا لمن يشاء حرية المناقشة في حدود الفن الذي نرجو له كل نماء وازدهار :

المسرح وقيمته الفنية :

لعلنا لا نغالو إذا قلنا إن الفن المسرحي أرفع الفنون الجميلة وأفضلها . وربما كان من السهل أن ندلل على ذلك بدليل بسيط معقول وهو أنه إذا كان كل فن من الفنون يؤدي رسالة ما وبجانب ذلك قد يشبع حاسة ما (الموسيقى تشبع حاسة السمع مثلا والتصوير يشبع حاسة البصر ... وهكذا) فإن الفن المسرحي باعتباره شاملا لكثير من الفنون يؤدي بالطبع رسالاتها جميعاً أو معظمها وبجانب ذلك يشبع أغلب ما تشبعه من حواس . ولكنا لا نريد أن نقف عند هـذا التدليل السطحي وإن كان منطقياً فإن للفن المسرحي في ذاته ومن ذاته قيمة كبرى مستمدة من أنه ينفرد دون سائر الفنون بإبراز ما في الحياة من صور إنسانية بطريقة حية وناطقة إبرازا « واقعياً » خالصاً . هذه مسألة هامة ودقيقة جدا لأنه قد يظن أحياناً أن التصوير الخيالي أروع من التصوير الواقعي .. وهذه غلطة شائعة . فالخيال إن لم يكن متصلا بالواقع اتصالا قوياً أصبح تخيلا أقرب إلى الوهم وأدعى إلى التضليل ! والفن المسرحي هو أكبر الفنون استئثاراً بالواقع على نحو نموذجي . وهذه ميزته .

فهو — لأصالته وقوته — أشد الفنون نفوراً من الشذوذ الخارق وأصدقها تعبيراً عن الحياة الإنسانية وما يخالجها ويحركها من عواطف مختلفة بحيث لا تخرج الظواهر الممثلة على المسرح عن الحدود الطبيعية . سلوك إنسانى فى عالم إنسانى مأهول يؤثر فى الناس ويتأثر بهم .

ولهذا يشترط فى المسرحية الناجحة أن تكون حوادثها محتملة الوقوع وخاتمها طبيعية أى متمشية مع مجرى هذه الحوادث وبذلك تكون مرآة ناصعة يشاهد الجمهور فيها صورة من حياته ويلمس العوامل التى كونتها ... أى يرى « حقيقته على المسرح رؤية مجسمة ومركزة كما يحس جمال الفن فى أبدع مظاهره وأبهجها وفى هذا كله ما يثير رغبته فى تصحيح أوضاعه وتجميلها والتطلع إلى مثل عليا .

المسرح وقيمته الفكرية :

كاد يصح فى أذهان الناس أن المسرح مجرد متعة . وإنه لكذلك . ولكن ما نوع هذه المتعة ؟ أليس للفكر فيها نصيب ؟! وإلا فبماذا نفسر تطور المسرحيات من صراع بين قوتين إلى صراع بين عاطفتين إلى صراع بين الإنسان وبيئته وخواطره وملكاته ؟ وبماذا نعلل وجود (مسرحيات المشكلات Problematic Plays) فى أدب المدرسة الحديثة التى أنشأها إبسن النرويجى وتبعه برناردشو وسنج وغيرهما .

الواقع أن الفكر عامل هام من عوامل المسرح . وقد تصل أهميته أحيانا إلى حد اعتباره عاملا أساسياً . لأن المسرح فضلا عن كونه وسيلة للتسلية أو الترفيه فهو فى نفس الوقت وسيلة لتحقيق الاتصال بين تفكير مؤلف المسرحية وبين الجمهور .

وكل ما فى الأمر أن هذا التفكير يظل دائما مستخفياً وراء العناصر الظاهرة الأخرى ولكنه رغم ذلك عنصر ضرورى له ذاتيته الخاصة ويمتاز عن ضروب التفكير الأخرى بثلاث ميزات :

فميزته الأولى أنه لا يعنى بغير « الحقائق الكبرى » وعلامتها أن يكون لها أثر مباشر فى حياة الإنسان وإحساساته كالموت والقضاء والقدر والحب ونحو ذلك . وصحيح أن بعض أدباء فرنسا خاصة وأوربا عامة اتجهوا — فى العصر الحديث — إلى العناية بالحقائق التافهة ذات الأثر المؤقت استجابة لميول العوام وشغفهم بالجديد أيا كان . إلا أن هذا يعتبر انحرافاً خطيراً على حساب الفن الصحيح .

وأخشى أن يفهم من ذلك أن المسرح فن محافظ أو رجعى التفكير وهذا خطأ . لأن الحقائق الكبرى خالدة . فالصراع بين القديم والجديد مثلا حقيقة خالدة نراها فى مسرحية (الضفادع) لأرستوفان . فى القرن الخامس قبل المسيح كما نراها فى المسرحيات الحديثة دون ملل أو استغراب . وحيرة الإنسان وضعفه حيال القضاء حقيقة خالدة يصورها أندريه جيد الآن كما كان يصورها شاعر الإغريق سوفوكليس بلا خلاف فى اللب والجوهر والصميم . وهكذا . . .

وميزته الثانية . أنه لا يعرض الحقائق الكبرى على العقول كقضايا جدلية تستعصى على الفهم بل يثير الإحساسات والمشاعر فتصبح هذه الحقائق فى متناول مختلف العقليات غالباً . وفضلا عن ذلك فإنه يعرضها عرضاً اختيارياً بمعنى أن الناس لا يجبرون على مشاهدتها ومن هنا يسهل اتصال نفوسهم بها اتصالا مباشراً فيفهمونها من حيث يخيل إليهم أنهم « يتسلون بها » .

وميزته الثالثة : الحوار . ومعلوم أنه أبرع وأفضل أداة فى توضيح الاتجاهات المختلفة أو المتناقضة فى الموضوع الواحد لأنه يعرض الفكرة ثم يقرنها بأضدادها وأشباهها كذلك وحينئذ يتسنى للمشاهدين بالمقارنة أن يتبينوا أوجه الضعف أو القوة فيها . وكم من أفكار كانت بحكم العرف وغيره عقائد راسخة فى الأذهان ثم تناولها مسرحى ماهر مثل برناردشو فاستطاع أن يبين ما فيها من سخف بفضل الحوار الذى يواجه العقل باحتمالات تهز رواسبه وتستبق ما يؤيده البرهان فقط .

وكل هذا لا ينقص من قيمة (المتعة) التى يجب أن يحس بها الشاهدون . فلا تزال هى الغرض الرئيسى للمسرح . غير أنها لا تخلو من عنصر « الفكر » وإن لم يعمدوا ظاهرياً إلى التفكير البحت ... إنما يحسون فى نفوسهم بالسرور والانتشاء لأنهم — دون شعور ملحوظ — يحللون ما يشاهدونه على قاعدة تفضيل الأسمى والأجمل والأروع ... وهذا هو مناط التفكير السليم .

(للبحث بقية) عبد الفتاح البارودى